- ٤ -

أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلى

هذا الكتاب من ذخائر المغرب العربى ، ونحن اذ نعرض له بالتحليل والدراسة فى سلسلة التراث الأدبى للمغرب العربى ، وانما نفعل ذلك على سبيل التوسع فى معنى الأدب ؛ فهو دراسة اجتماعية وسياسية واقتصادية وحربية ودينية ٠

واذا كان الأدب مرآة تعكس انفعالات الأديب واهتماماته الانسانية مهما تنوعت اتجاهاتها واختلفت محاورها ، فانه كذلك وبنفس المقدار يعكس نبض الأمة ويرصد مشاغلها حكاما ورعية ٠

وليس ردة من الأدب ولا خروجا على رسالته ما نراه أحيانا عند ذوى الميول الاصلاحية من توسع فى مفهومه ٠

واذا كنا ـ بسبب موضوعاتهم ـ لا ننحاز بكتاباتهم الى النثر الأدبى الخالص ٠

واذا كانا أيضا ـ بسبب تلوين هذه الكتابات بالصبغ الفنى الجمالى ـ لا ننحاز بها الى النثر العلمى الخالص ٠

فان هذه الكتابات تقع وقوعا طبيعيا ـ وأكاد أقول : آليا ـ فى المنطقة الوسطى بين النثرين العلمى والأدبى ، وهى ما تسميه الدراسات النقدية الحديثة بالأسلوب العلمى المتأدب ٠

من هذه الكتابات ، أو من هذا الأسلوب ٠
« أسئلة الاسقيا وأجوبة المغيلى » ٠

فهو كتاب علم اذا نظرنا الى مضمونه ، وكتاب أدب اذا نظرنا الى صياغته ، هو مزيج من الفكر والشعور ، وقد كتبه صاحبه بحماس المصلح الاجتماعى ، وغيرة رجل الدين الملتزم ، وقد جاءت أفكاره لهدا مزجاة بالعاطفة ، عاطفة الحب للسلطان والنصح له ، وعاطفة الحب للدين والحرص عليه ٠

وستعلم بيئة الكتاب وتاريخ تأليفه وظروف هذا التأليف ، ونحن نعرف بمؤلفه المغيلى ، وبمن ألفه له وهو :

الأسقيا محمد الأول ملك سنغاى وصاحب الأسئلة(*)

هو أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الملقب بالأسكيا ، سراكولى الأصل ، هاجر أجداده فى نهاية القرن الحادى عشر من جنوبى موريتانيا الحالية ـ وقد كانت جزءا من مملكة غانا ـ الى بلاد النيجر ، وامتزجوا بالمصاهرة والنسب مع قبيلة سنغاى ·

ولما كبرت تلك القبيلة وأحست بقوتها بعد دخول السراكوليين فيها ، وامتزاجهم بها ، بدأت تتوسع وتتحول الى امارة ، لكنها كانت امارة صغيرة تابعة لمملكة مالى ·

ولما بدأت عوامل الضعف تنخر فى جسم هذه المملكة ، وعلى وجـــه التحديد فى سنة ١٣٣٦ م استقلت امارة سنغاى عنها بقيادة آل سنى ·

وفى عهد الأمير سنى على بارو [١٤٦٥ ـ ١٤٩٢ م] كان الأسقيا محمد أحد الضباط البارزين فى جيشه ، والرجل المسئول عن سياسة التوسع ، لكن الملك سنى على كان حاكما مقسدا ، وربما كافرا ملحدا ، كما سنرى فى الأسئلة والأجوبة ·

ولهذا رأينا الأسقيا محمدا يقوم بثورته عليه ويسقطه عن عرشه سنة ١٤٩٣ م ، وقد انتهى بهذا حكم آل سنى الذى استمر (١٥٧) سبعا وخمسين ومائة سنة ·

ولما كان الأسقيا محمد قد جاء الى الحكم عن طريق ثورة ؛ فانه رأى لزاما عليه أن يوطد ملكه ، وأن يثبت وجوده على عرش سنغاى ·

ومن هنا كانت اصلاحاته الكثيرة ومسايرته للفقهاء ولرجال الدين ، ولعل أصله السودانى كان أحد عوامل نجاحه ·

---

* قيل فى تبرير لقب [اسقيا] أو [أسكيا] : ان بنات سنى على لمـــا قام محمد الاول بالثورة على أبيهن وبلغهن ذلك قلن : [أسكيا ؟] أى أهو نفسه ؟ فالتصق تساؤلهن بمحمد الاول من ذلك الوقت ·

أما آل سنى فهم مما زيغ بربر ، جاءت أصولهم من منطقـــة طرابلس الغرب مرورا بفزان الى السودان ٠

ولم تمض سوى ثلاث سنوات حتى كان الأسقيا محمد قد تحول بمملكته من الشكل القبلى الى الشكل الوطنى الذى يسمح لجميع القبائل بالمشاركة فى الشئون العامة للبلاد ٠

وفى سنة ١٤٩٦ م سافر للحج ٠

وقد أنفق فى هذه الرحلة ثلاثمائة ألف قطعة ذهبية . فانه اشترى فى مكة أرضا ودارا يأوى اليها الحجيج السودانى ، وقد ظلت تعرف بـ[رواق التكرور] ولكثرة نفقاته قوبل باحترام كبير من جانب شرفاء مكة ، وقلده كبيرهم مولاى العبـــاس شارات السلطنة ، ولقب [أمير السودان الغربى وخليفة السودان كله] ٠

وقد سعد الأسقيا بذلك سعادة عظمى ، ولا عجب : فهو قد كسب المكانة السياسية على أساس شرعى فى نظر رعاياه وغيرهم ٠

واثر رجوعه من الحج بروح معنوية عالية ، انهمك فى الفتوح الدينية، فأخضع بلاد الموسى ، وبسط نفوذه على معظم أقاليم السودان الغربى ٠

وقد بلغت سنغاى على عهده من التوسع ما لم تبلغه فى تاريخهـــا الطويل كله ، بل ما لم تبلغه مملكة غيرها فى طول السودان وعرضه ٠

***

وفى آخر أيامه خلعه أكبر أبنائه وولى عهده المسمى موسى ، وكان ذلك فى سنة ١٥٢٨ م ٠

***

وعلى الرغم من أن أبناءه وأحفاده الذين حكموا بعده لم يكونوا مثله فى القوة ولا فى التمسك بأهداب العدل ، الا أن مملكة سنغاى ظلت بقوة دفعة عظيمة ومسيطرة على جميع ما كان بيده ، حتى أنهى جيش المنصور الذهبى السعدى عهد آل اسقيا بانتصاره على جيش اسحق الثـــانى آخر

السلاطين الأسقيين سنة ١٥٩١ فى معركة [توندينى] الى الشمال الغربى من [غاو] العاصمة ٠

وبهذا يكون حكم آل أسقيا لسنغاى قد استمر مدة ثمان وتسعين سنة من ١٤٩٣ الى ١٥٩١ م(١) ٠

المغيلى مؤلف الأجوبة

هو محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلى ، والمغيلى نسبة الى قبيلة مغيله التى كانت تقيم بالقرب من تلمسان ٠

واذا كان تاريخ ولادته مجهولا . فان تاريخ وفاته هو سنة ٩٠٩ هـ ٠

كان من أبرز المثقفين وقادة الفكر فى عصره ، وقد انتقل بعد اتمام دراسته من الشمال الى الجنوب فسكن الصحراء ، ولا يعرف لذلك سبب مؤكد ، ولو أنه يمكن القول بأن حملته على اليهود الذين كانوا مسيطرين فى أهم مدن الشمال على مصادر التجارة والمال ، هى التى ضيقت عليه فى عيشه واضطرته الى الهجرة ويسهل تصور ذلك اذا علمنا أن اليهود كانوا قد اشتروا ذمم بعض المسئولين الرسميين وجعلوهم صنائع لهم وسيوفا يسلطونها على خصومهم ٠

ولم يكن حظه فى الجنوب بأحسن منه فى الشمال ، فقد وجد اليهود يشاركون بنشاط كبير فى حركة القوافل التجارية مع السودان ، ويتصرفون بحرية أكثر من الحرية التى يتمتعون بها فى الشمال،أى أن المغيلى كان فى انتقاله من الشمال الى الجنوب بسبب اليهود كالمستجير من الرمضاء بالنار ٠

لكنه هذه المرة كان ايجابيا بدعوته الملحة الى محاربتهم . وبهدمه مع بعض أصحابه عددا من بيعهم بمدينة [توات] وما جاورها ٠

ولما لم يجد لليل اليهود آخرا انتقل الى [كانو] حيث اتصل بأميرها وكتب له رسالة أرشده فيها الى التزام الجادة الاسلامية فى حكمه ٠

---

(١) انظر « مملكة سنغاى فى عهد الاسيفيين » تأليف رابح بونار طبعة الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة ١٩٧١ م ٠

وبعد أن درس بمساجد [كانو] مدة ، انتقل الى [غاو] واتصل بالأمير أسقيا محمد الكبير . فأكرمه هذا الأخير ، وكتب عدة أسئلة . رجاه الاجابة عنها طبقا لمبادىء الاسلام .

***

وينسب المؤرخون للمغيلى أربعة عشر كتابا معظمها فى الفقه، وبعضها فى اللغة .

هذا عدا رسائل الافتاء ومكاتبات الاصلاح .

ومن رسائل الافتاء ومكاتبات الاصلاح أجوبته على أسئلة الاسقيا .

***

وقد كان المغيلى بعلمه الواسع وبعمله الشجاع فى حث الملوك والرؤساء على سلوك سبيل الحق ، صاحب شخصية قوية استطاع بهـــا التأثير على الناس فى السودان حتى صار اسمه مقرونا لديهم بلقب [الامام] .

ولم يكن هذا حاله فى السودان وحده ، بل كان هذا حاله فى المغرب قبل مجيئه الى السودان .

لقد كان المغيلى من الصراحة والجرأة بحيث شهر بانحراف المسئولين فى المغرب عن جادة الصواب ، وأنذرهم عاقبة أمرهم وتنبأ بهجوم البرتغال والأسبان على بلادهم . وقد صدقت نبوءته .

أهميـــة الكتـــاب

تتمثل أهمية هذا الكتاب فى أنه يلقى الضوء على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية فى مملكة سنغاى على عهد الأسقيا محمد الأول الذى يبدو صريحا وهو يسأل المغيلى عن عدد من الأمور التى كـانت تشغل باله ، ويطلب منه الاجابة عنها على حسب تعاليم الاسلام ، أما المغيلى فقد رأيناه من خلاله رجل دين واصلاح .

ونحن نذكر به وبآرائه التقدميةالجريئة ابنخلدون وابن تيمية وعزالدين

ابن عبد السلام وجمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ومحمد اقبـــال وعبد الحميد بن باديس والشيخ حسن البنا والشـهيد سيد قطب ٠

كما رايناه عالما واسع الاطلاع طويل الباع فى كل ما يتصـل بشئون الدين والدنيا وصاحب قلم مطواع يعالج به كل ما يخطر له على بال ، ولو خرج فى ذلك عن حدود السؤال ٠

واذا كان الكتاب بشقيه [الأسئلة والأجوبة] يهم المؤرخين لأنه الوثيقة الوحيدة التى جاءتنا عن عهد الاسيقيين فى سنغاى ، فانه كذلك يهم رجال العلم والأدب والسياسة والحرب والاقتصاد والاجتماع ، وهو الى ذلك يعطى صورة من التبادل الثقافى والفكرى بين المغاربة وجيرانهم السودانين ٠

وأول خطوة على هذا الطريق كانت تلك الفرقة الصغيرة التى دفع بها عقبة بن نافع فى اتجاه فزان فوصلت الى تشاد ٠

وقد بلغ ازدهار الثقافة الاسلامية بالسودان الغربى مرحلة الأوج فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وفى هذين القرنين بالذات ، وعلى وجه التحديد ما بين سنة ١٥٠٢ . ١٥٠٣ وضع هذا الكتاب بالاشتراك بين المغيلى رجل الدين والمصلح الاجتماعى بل عالم الاجتماع ، وبين الأسقيا محمد الأول رئيس دولة سنغاى وهو ملك كان يهتم كل الاهتمام باصلاح حال رعيته وتقويم سلوكها بما يتلاءم وقوانين الاسلام ٠

وقد صدر الكتاب بتحقيق الأستاذ الفاضل عبد القـــادر زبايديه عن الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر المحمية سنة ١٩٧٤ م ٠

عرض وتحليل الكتاب :

جاء هذا الكتاب فى سبع مسائل ، فى كل مسألة أكثر من سؤال ، أجل فليست مسائله بسيطة بل مركبة ، بمعنى أن كل مسألة مكونة من خيوط كثيرة تكون جديلة كبيرة تسمى مسألة .

وها هى ذى فى دراسة موجزة مركزة ، يغنى فيها الشاهد عن الغائب، والمنظور عن المستور ، وعلى من يريد الاستيعاب أن يقرأ الكتاب كله .

المسالة الأولى

تبدأ المسألة الأولى بل يبدأ الكتاب بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله هكذا :

من عبد الله تعالى محمد بن عبد الكريم بن محمد المغيلى الى الامير الحاج ابى عبد الله محمد بن أبى بكر الملقب بأسكيا .

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، أما بعد . أعاننا الله واياك على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ، فانك سألتنى عن مسائل : **أولها** : - أنك قلت : مذ من الله علينا بالاسلام ، أصابتنا مصيبة فى هذا البلد ؛ لعدم الامانة فيمن ينتسب الى العلم من قراء بلادنا ، ومن صفتهم أنهم لايفقهون من العربية الا قليلا **من كلام عرب بلادهم** ، على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ولا موضع التصحيف والتحريف ومع ذلك لهم كتب يدرسونها وحكايات وأخبار . ومنهم قضاة ومفسرون يتكلمون فى دين الله ويزعمون أنهم من العلماء الذين هم ورثة الانبياء . وأنه يجب علينا الاقتداء بهم .

وأنا أطلب من الله ثم منك أن تفتى لى بما علمك فى هؤلاء القراء :

هل يجوز لى أن نعمل بقولهم فى دين الله . ويخلصنى تقليدهم عند الله ؟ أو لا يحل لى ذلك ، ويجب على البحث عمن نوليه الحكم ونقلده فى أمور الدين ؟

وبين لنا صفة من يصلح لذلك شرعا ٠

ثم أطلب منك أيضا ان تشفى غليلى بترتيب الاجوبة على هذه الاسئلة وبزيادة ما تبسر لكم من النصيحة أيضا ٠ ص ٢١ ـ ٢٢

انتهى السؤال الاول من المسألة الاولى ، ونبادر فنقف منه عند نقطتين هامتين للايضاح والشرح ٠

النقطة الاولى ان الاسقيا محمدا اشار بل صرح بأن قراء بلده وفقهاءها من أصل عربى ٠ وانظر قوله : ـ [لا يفقهون من العربية الا قليلا من كلام عرب بلادهم] ٠ وهى اشارة تاريخية ذكية وصائبة ؛ فقد أثبتت ابحاث العلماء أنه قد حدثت هجرات لجماعات من شبه الجزيرة العربية ـ وبخاصة المنطقة الجنوبية ـ الى أفريقية ولو أن معظم هؤلاء المهاجرين كانوا يستقرون فى الشرق من أفريقيا ، ولا يصل الى السودان الغربى منهم الا القليل ، وقد عوض ذلك أن العلاقات بين المغرب والسودان كانت وثيقة وقوية ؛ فقد حصلت هجرات عديدة من بلاد المغرب الى السودان وبالعكس ، وها هو ذا المغيلى فى السودان مفتيا للكى (كانو) و (غاو) ومستشارا خاصا لهما ٠

النقطة الثانية

ما يبدو من تناقض بين وصف الاسقيا لرجال الدين فى دولته بأنهم لا يفقهون من العربية الا قليلا على تصحيف وتحريف وعجمة عظيمة بحيث لا يعرفون مقاصد العلماء ، ولا موضع التصحيف والتحريف ، ثم يعطف بقوله : ـ « ومع ذلك لهم كتب يدرسونها ، وحكايات وأخبار ، ومنهم قضاة ومفسرون » ٠

ولا مخرج لنا من هذا التناقض الا بجعل كلمة (لهم كتب) بمعنى عندهم كتب ، فليس بلازم ، بل ولا يعقل وهذا حالهم أن تكون من تآليفهم ٠

والآن : مع جواب المغيلى عن سؤال الاسقيا ، قال بادئا بنصحه : ـ

اعلم أعاننا الله واياك أن الملك كله لله ، وما النصر الا من عند الله فكن لله عبدا بطاعته يكن لك ربا بحفظه واعانته ، انما أنت مملوك لا تملك شيئا، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم ، لا لتكون سيدهم ومولاهم ، وانت فى جميع أمرك راع لا مالك ، وكل راع مسئول عن

رعيته ، فانظر لنفسك قبل الفوت فانه لابد لك من الموت ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما من أمير عشرة الا يؤتى به مغلولا يوم القيامة حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور » · وقال : -

اللهم من ولى من أمر أمتى شيئا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئا فرفق بهم فارفق به » ·

أكتب كلام المغيلى وأنا مبهور ، وكم أود أن يقرأه علماؤنا الأفاضل فى شتى المجالات ، وخاصة مجالات الوعظ والارشاد ، وعلى وجه أخص من يخطب منهم حتى خطبة الجمعة - وهى خطبة شرعية لها شروط وأركان - فى حضرة الملوك والرؤساء أو من هم دون الملوك والرؤساء ·

وترن فى أعماقى كلمات المغيلى لملك دنغاى وخليفة السودان كله ؛ فهو بادىء ذى بدء يصادره ملكا ، ولا يخلى بينه وبين وظيفته الرسمية فى الدولة قبل أن يعظه ويذكره ، خشية أن يركبه الغرور ، ويبعده الكبر عن الناس ·

وأعيدوا معى قراءة هذه الرقع الارجوانية : « انما أنت مملوك لا تملك شيئا ، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده ، لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم أنت فى جميع أمرك راع لا مالك · أنظر لنفسك قبل الفوت ؛ فانه لا بد من الموت » ·

يا أبنائى الوعاظ ، بل يا آبائى الوعاظ ، احفظوا هذا الكلام ووازنوا بينه وبين ما تقولونه فى مثل هذا المقام ، ثم انظروا فى مرايا ضمائركم ، ومن فضلكم لا تحكموا على أنفسكم بالاعدام ·

والوضعية السليمة للملك أو الرئيس أن يناط به اصلاح دين الناس ودنياهم لا أن يكون سيدهم ومولاهم ، أى أن منصبه تكليف لا تشريف ·

ويا من تؤمنون بجان جاك روسو ونظرية العقد الاجتماعى ·
ثم يا من تنكرون أن الاسلام دين ودولة ·

تعالوا فانظروا ماذا قال المغيلى منذ ست وسبعين وأربعمائة سنة

***

ولا يقف المغيلى عندما طلب منه الاجابة عنه ، فها هو ذا يستطرد الى موضوع جديد بقوله : - وكيف يعمل مع أقاربه ؟

قضية عثمان اذن :

وهى قضية مؤكدة ؛ لأنها متجددة وقائمة فى كل زمان ومكان ، وهى شىء طبيعى ؛ فالحاكم - أى حاكم - ليس نباتا شيطانيا ، وانما هو ابن وطنه وأمته - **وقبل ذلك ابن بيته وأسرته . فماذا يعمل مع أقاربه ؟ جل ماذا يعمل ؟**

يجيب المغيلى عن **هذا السؤال بقوله : -**

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **ما من وال الا وله بطانتان : بطانة تأمره بالمعروف وتنهاه عن المنكر ، وبطانة لا تألوه الا خبالا ، فمن وقى شرهما فقد وقى .**

اذا علمت ذلك أيها الامير فعليك بأمرين :

الاول : أن تبعد عنك أهل الشر ، وأن تقرب منك أهل الخير لأن من الغالب على الانسان التأنس بقرينه ، والميل الى طبعه وتزيينه ، فمن قرينه من نفسك فقد مكنته من أذنك ، ومن مكنته من أذنك فقد مكنته من قلبك ، لأن الاذن زمام القلب ، ولذلك قال مالك بن أنس : -

لا تمكن زائغ القلب من أذنك ، وقال بعض الحكماء : -

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه ... فكل قرين بالمقارن يقتدى

وفى ذلك قلت : -

اذا قرب السلطان أشرار قومه ... وأعرض عن أخيارهم فهو طالح
وان قرب السلطان أخيار قومه ... وأعرض عن أشرارهم فهو صالح
وكل امرىء ينبيك عن قرينه ... وذلك فى أمر البرية واضح

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك كله بقوله : -

اذا أراد الله بالامير خيرا جعل له وزير صدق ، ان نسى ذكره ، وان ذكر أعانه ، واذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء ، ان نسى لم يذكره ، وان ذكر لم يعنه .

والثانى : - أن تسأل أهل الذكر عن كل ما لا تعلم حكمه من تصرفاتك كلها لتحكم بما أنزل الله فى كل ما حملك منها ، قال الله تعالى : -

« ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » ، « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » ثم قال تعالى « واسألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون » .

والذكر هو القرآن ، وأهله من اجتمع فيه وصفان : العلم والتقوى ، لأن بالعلم يعرف الرشد من الغى ، وبالتقوى يأمر بالرشد وينهى عن الغى.

فلا تقلد فى دينك الا من ثبت أنه عالم تقى ؛ لأن من لم يثبت أنه عالم يخاف أن يضل ويضل بعماه ، ومن لم يثبت أنه تقى يخاف منه أن يضل بهواه ، ألم تر الى قول الله تعالى : - يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله » .

وبنظرة نقدية نافذة يغربل المغيلى علماء وقته فيقول : -

ان كثيرا من علماء هذه الامة وعبادها يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، وبسبب هؤلاء العلماء والعباد شاع الفساد فى جميع البلاد ، فالجهاد فيهم وفى أنصارهم أفضل من كل جهاد ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : -

« أنا من غير الدجال أخوف عليكم من الدجال ، فقيل ممن يا رسول الله ؟ قال من علماء السوء » .

وعن أبى حذيفة اليمانى رضى الله عنه أنه أخذ حصاة بيضاء فوضعها فى كفه ثم قال : ان الدين قد استضاء استضاءة هذه الحصاة ، ثم أخذ كفا من تراب فجعل يدور على الحصاة حتى واراها ثم قال : - والذى نفسى بيده ليجيئن أقوام يدفنون الدين هكذا (كما دفنت هذه الحصاة) . ولتسلكن سبيل الذين كانوا من قبلكم حذو القدة بالقدة والنعال بالنعال .

فمن أعظم الواجبات على أمراء المسلمين حفظ الدين بألا يتركوا أحدا يتكلم فى دين الله بتعليم ولا حكم ولا فتوى حتى يكون من أهل العلم والتقوى ، ولذلك لما قدم على بن أبى طالب رضى الله عنه البصرة دخل جامعها فوجد القصاص يقصون ، فأقامهم حتى جاء الى الحسن البصرى رضى الله

عنه فقال : يا فتى ٠ انى سائلك عن شيء فان أنت أجبتنى عنه أبقيتك ، والا أقمتك كما أقمت أصحابك ٠

ـ وكان قد رأى عليه سمتا وهديا ـ قال الحسن : سل عما شئت فقال : ـ ما ملاك الدين ؟ قال : الورع ٠ فقال : وما فساد الدين ؟ قال :ـ الطمع ، قال اجلس مثلك يتكلم على الناس ٠

أليس من أعظم الواجبات على كل أمير أن يطرد عن طريق الدنيا جميع المفسدين ؟ فكيف لا يجب عليه أن يطردهم عن طرق الدين ؟!!

وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن كثيرا من قراء هذه الامة انما هم من علماء السوء ، وعلماء السوء انما هم لصـــوص الدين ، وأضر على المسلمين من جميع المفسدين ، ولذلك قال ابن المبارك رضى الله عنه : ـ

وهـل أفســد الدين الا الملـــوك وأحبـــار ســوء ورهبـــانها

وقال بعض الادباء : ـ

قضـاة زماننا أضـحوا لصوصا عمـــوما فى البرية لا خصوصـا
فلو عند التحيـة صـــافحونا لسلوا من خواتمنـا الفصوصـــا

واستكمالا للاجابة ووصولا بها الى بؤرة الشعور من الملك السائل هذا الكلام الاستطرادى للمغيلى قال : ـ

فان قلت : قد بينت وأوضحت أن كثيرا من علماء هذه الأمة ليسوا من أهل الذكر ، انما هم من علماء السوء الضالين الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله ، ولكن كلا منهم يقرأ القرآن والحديث وكثيرا من نصوص الكتاب ويزعم أنه من أهل الذكر ، وينكر أنه من علماء السوء، فبأى شيء نفرق بين أهل الذكر وعلماء السوء ؟ وكيف يفعل من ولى شيئا من هذا الامر ، ولم يجد فى بلده أحدا من أهل الذكر ؟

فالجواب والله الموفق للصواب أن الله يجعل لكل هاد من اهل الذكر انوارا فى كل عصر من الأعصار هداية لسهم الجنة وحجة على سهم النار،

وبيان ذلك أن حكمة الله ألا يعذب قوما حتى يبين لهم ما يتقون ، وتلك

سنة الله فى الأولين والآخرين . لئلايقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذا غافلين ٠

ومن حكمته كذلك أن جعل ذلك البيان على لسان البشر من الانبياء فى الأولين ومن أهل الذكر فى الآخرين ، لأن الله جعلهم للهداية واقامة الحجة فى هذه الأمة كالانبياء فى الامم الماضية ، ولذلك روى أن فى رأس كل قرن يرسل الله للناس عالما يجدد لهم دينهم ٠

ولهذا العالم علامات متى تبيناها فيه تعين أنه من الصالحين ، أما علماء السوء فمن أبين علاماتهم أنهم لا يصلحون ولا يتركون من يصلح . فمثلهم كمثل الصخرة فى باب النهر ، لا تشرب ولا تترك من يشرب ٠

وبعد كلام طويل من هذا القبيل يحس المغيلى ـ كما أحسسنا ـ أنه غير واضح ، وبناء عليه غير مقنع ، وهو لهذا يعود فيبدأ من حيث انتهى ويقول على سبيل القطع : ـ

وان لم تفهم ما قررناه وأشكل عليك شىء مما ذكرناه ، فاعلم أن القراء كلهم ثلاثة أنواع : ـ

الاول من تبين لك بلا شك أنه عالم تقى ٠

الثانى من تبين لك بلا شك أنه ليس بعالم أو أنه ليس بتقى ٠

الثالث من شككت فيه ٠

فمن تبين لك أنه عالم تقى فهو من أهـــل الذكر فاسأله عن دينـك وقلده ٠ ومن تبين لك أنه ليس بعالم وأنه ليس بتقى ، فليس هو من أهل الذكر فلا تقلده فى شىء من دينك ولا تسأله عنه ٠

ومن لم يتبين لك حاله فلم تعلم : هل هو عالم تقى أو لا ، فقف عنه أيضا ، ولا تقلده فى شىء من دينك ولا تسأله ولو كان فصيحا عربيا يحفظ ما فى جميع الكتب حتى يتبين لك بلا شك أنه عالم تقى ٠

اذا علمت ذلك لم يلتبس عليك أمر القراء فى هذا الزمان ووجب عليك أن تطلب عالما من أهل الذكر ٠

ثم أعلم أن تأخيرك النظر فى الامور حتى تستفتى من بعد عنك من أهل الذكر تضييع لكثير من الامور التى تعين عليك اصلاحها عاجلا ، فبـــادر بالنظر فى جميع الامور التى تعين عليك اصلاحها عاجلا ، واعلم أن الامور كلها ثلاثة أنواع : -

فكل أمر علمت أنه مما أمر الله به فافعله،فانه خير ولا يأتى منه الاالخير وكل أمر علمت أن الله نهى عنه فاتركه ، فانه شر ولا يأتى عنه الا الشر .

وهذان النوعان كثير ، فاذا شغلت باصلاحهما ونصحت فيهما كثر خيرك قولا وفعلا ، وملأت بلادك قسطا وعدلا .

وكل أمر شككت فى حكمه ، وخفت من اثمه فعليك فيه بالاحتيـــاط الصارف عن الشبهات ، فان الجنة حفت بالمكاره وحفت النار بالشهوات . فاقطع الشك باليقين ؛ واحتط لدينك أكثر ما تحتاط لدنياك فى كل حين .

والمغيلى هنا يضع الموازين للملك ، ليزن بها الرجال والاعمال ، ويزوده بما يلزمه فى مجابهة الامور التى تستجد حتى لا ينتظر الفتوى من أناس قد يبعدون عنه ، وهو ينطلق فى هذا من اعتبارين : -

الاول : ان على الانسان أن يجتهد .

الثانى : أن على الانسان ألا يتردد فى اختيار ما يراه مناسبا حرصا على البت السريع وبخاصة فى الاحوال التى يكون التأنى فيهـــا مضيعة للوقت .

وتمكينا لعوامل الفساد من الانتشار فى الارض .

ولم يتقو المغيلى بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « من اجتهـــد فأصاب فله أجران ومن اجتهد فأخطأ فله أجر»، لم يتقو المغيلى بهذا الحديث الشريف ، لأنه أراد لكلامه أن يكون عقليا أكثر منه نقليا ، ولعل هذا هو السر فى أنه ساق كثيرا من الأمثلة التى تثبت أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

ولا بأس على الامام اذا تحرك من هذا المنطلق . لأنه اذا كان جلب المصلحة واجبا ، فانه واجب على التراخى ، أما درء المضرة فهو - مع أنه واجب - واجب على الفور .

المسألة الثانية

تدور هذه المسألة حول أمور كثيرة منها معتقد سنى على وسلوكه ، فقد كانت أمه من أهل بلاد فار وهم قوم كفار يعبدون الاصنام من الاحجار والأشجار ، يتصدقون لها ويطلبون حوائجهم عندها ، فان أصابوا خيرا زعموا أن تلك الأصنام هى التى أعطتهم ، وان لم يصيبوا رأوا أنها منعتهم.

وكان سنى على من صغره الى كبره كثير الاقامة عندهم فجرى على معتقدهم وتطبع بطباعهم ، أجل انه كان ينطق بالشهادتين ويتكلم بألفاظ المسلمين مع عدم معرفته بحقيقة ما ينطق به ، انما يقول ذلك بلسانه ، وربما سمع اسم النبى فقال : صلى الله عليه وسلم ، ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ونحوهم .

ومن صفته أنه مارؤى فى جامع ولامسجد يوم جمعة ولاغيره ، وفى دائرته ودياره ألوف من الرجال والنساء لا يستطيع أحد منهم أن يصلى صلاة ولا أن يصوم يوما من رمضان خوفا منه أن يعاقبه على ذلك ، وأما هو فى نفسه فلم يكن يحفظ الفاتحة ولا غيرها ولا يصلى صلاة مكتوبة فى وقتها ولايقوم ويركع ويسجد فيها ، انما يترك الصلوات الخمس الى آخر الليل أو الى ضحى الغد ثم يجلس ويومىء الى السجود من جلوسه وهو صحيح قوى لاعلة به ، ولايقرأ فى صلاته تلك شيئا ، انما يذكر اسم صلاته فيقول بدلا من ركوع المغرب : المغرب ، وبدلا من سجودها : المغرب ، وكذلك فى سائر الصلوات . ومن صفته كذلك أنه لا يتوقف فى النساء على نكاح ولاغيره من الشروط الاسلامية ، بل كلما أعجبته امرأة فى جميع مملكته أخذها وأدخلها فى بيته وفراشه ولا يبالى بزوجها ولا أحد ، ويجمعها مع أمها فيتلذذ بهما معا .

وأنه حلل دماء المسلمين وأموالهم فقتل من القراء والفقهاء والنساء والصبيان والرضع وغيرهم ، وأفسد منهم مثل الذكر والأنثيين وقطف الأنف واليدين ونهب من الأموال وسبى من الحريم وباع من الأحرار ما لا يحصى ، وفساده فى الأرض بذلك ونحوه مشهور ولم يسمع قط بمثله فى الاسلام ، ولم يزل على ذلك مدة عمره حتى مات [ص ٣٤ - ٣٨]

هذا الواقع البشع لسنى على قد يكون أمرا مبالغا فيه من الأسقيا تبريرا لثورته عليه وخلعه له .

لكن يبقى أن لهذا الوضع السيىء أصلا يرجع اليـــه وتاريخا يثبت صدقه ، فقد كانت أمـور المسلمين فى الســودان الغربى قريبة مما ذكر الأسقيافى سؤاله الموجه منه الى المغيلى :

دخل الناس فى الاســـلام واعتنقوه مع الاحتفاظ بعاداتهم الوثنية ، والابقاء على سلوكهم القديم ، أى أن اسلامهم كان سطحيا لاعمق فيه ولا لب له لأنه لم تنفر من كل طائفة منهم طائفة ليتفقهـوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون ٠

وسنى على واحد من شعبه بل اكثر من ذلك كانت أمه وثنية وكذلك كان اخواله،وقد نشأ فيهم وتربى بين أحضانهم ، فلا عجب أن كان اسلامه مشوبا بهذه المظاهـر الوثنية التى كانت جذورهـا فيه أمكن من جـذور الشعائر الاسلامية ٠

وننتقل الى اجابة المغيلى لترى بماذا رد ؟

قال : ــ الجواب والله الموفق للصواب أن سنى على وجميـع أعوانه واتباعه وأنصاره ، لاشك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين الذين يقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون فى الأرض ، وجهاد الأمير فيهم وأخذه السلطنة منهم أفضل الجهاد وأهمه ٠

وأماقولك هل هم كفار أم لا ؟ فلا يكفر أحد بذنب من أهل القبلة ، انما يكون التكفير بأحد أمور ثلاثة ٠

الأول : أن يكون نفس اعتقاده كفرا كانكار الصانع أو صفة من صفاته التى لا يكون صانعا الا بها ، أو جحد النبوة ٠

الثانى : صدور مالايقع الا من كافر وان لم يكن فى نفسه مثل استحلال شرب الخمر ، وغصب الأموال وترك فرائض الدين والقتـل والزنى وعبادة الأوثان والاستخفاف بالرسل وجحد شىء من القرآن ٠

فهذان الأمران الاجماع على من ثبت عليه واحد منهما حكمنا بكفره

الثالث : أن يقول قولا يعلم أنه لايصدق الامن لا يعلم الله تعالى ، وان كان قائله يزعم أنه يعرف الله ٠

وهذا مختلف فيه بين العلماء ، هل يكفر به أو لا ، وعليه اختلفوا فى تكفير المعتزلة ونحوهم من أهل البدع ٠

واذا علمتم ذلك تبين لكم أن الذى ذكر تموه من حال سنى على علم على الكفر بلا شك ،

فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر ، وكذلك كل من عمل بمثل عمله ، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك ٠

وأما استرقاق أولادهم فلأراه وان ثبت عليهم موجب الحكم بالتكفير، لأن الكفار ثلاثة أصناف ٠

الأول : من هو كافر صريح بالأصالة كالمجوس ونحوهم ممن ورث الكفر الصريح عن آبائه ٠

الثانى : من كان مسلمـــا ثم ارتد ارتدادا ظاهرا فصرح أنه خرج عن دين الاسلام ودخل غيره من أديان الكفر ٠

الثالث : من يزعم أنه مسلم وحكمنا بكفره ، لأنه صدر منه مالايقع فى الظاهر الا من كافر كما ذكرتم فى سنى على ٠

فالكفار بأصالة الكفر تسبى ذراريهم ونساؤهم وتقسم أموالهم لاخلاف فى ذلك بين العلماء ٠

وفى الكفار بالارتداد خـــلاف : قال ابن القاسم فى أهـــل حصن من المسلمين ارتدوا عن دين الاسلام الى الكفر : لاتسبى ذراريهم ونساؤهم ، وأما أموالهم فهى فىء للمسلمين ٠

قال ابن رشد : وهذا هو الصحيح من جهة النظر ، لأن المرتدين أحرار من أصلهم قال : والى مذهب ابن القاسم فى المرتدين ذهب عامة العلماء وأئمة السلف ٠

واذا علمتم ذلك فكل من فعل شيئا من تلك الأفعال الموجبة للتكفير يستتاب فان تاب ترك ، وان لم يتب قتل بالسيف كفرا ، ولا تسترق أولادهم انما يجبرون على الاسلام [ص ٣٩ ـ ٤٠]

والمغيلى فى افتائه وآرائه مرتبط بالدين ومعتصم بحبله المتين ، فهو قد أجاب اجابة موضوعيـــة غير متأثر بالحملة العدائية القوية من جانب

الأسقيا ضد سلفه سنى على ، لم يلف ولم ينافق بلم لم يتكلم كلاما موجها ·

العهدة على الراوى فيما أفتى به المغيلى ، والراوى هنا هو الأسفيا نفسه ، فان كان صادقا فله صدقه ، وان كان كاذبا فعليه كذبه ، أما المغيلى فهو على الحيـــاد تماما . لا انحياز منه الا الى الله ولا ولاء لراية سوى راية الاسلام ،

ولنقرأ معا قوله السليم الحكيم : « واذا علمتم ذلك تبين لكم أن الذى ذكر تموه من حال سنى على علم على الكفر بلا شك ، فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر . وكذلك كل من عمل بمثل عمله » ·

ونقف مما قرأناه عنـد قوله : « تبين لكم أن الذى ذكرتموه من حال سنى على علم مع الكفر » انه هنا قد ألصق الدعوى بمد عيها وقرنها به بل أكثر من ذلك ألبسها له ، أما هو فلا شأن له بصـــدق أو كذب ما قاله الأسقياعن خصمه ،

وما أعجب خبر [أن] فى العبارة السابقة وهو [علم على الكفر] أى علامة عليه ·

يريد أن يقول : أن الكفر هو ما ذكرتموه من أعمال وأقوال نسبتموها الى سنى على · لم يحكم صراحة بكفر سنى على ، كل ماهناك أن ماذكره الأسقيا سبب للكفر بل أكثر من ذلك هو اسم له وعلم عليه ·

وانظروا الى هذا التشكيك الصارخ فى كلام الأسقيا : [فان كان الأمر كما ذكرتم فهو كافر . وكذلك كل من عمل بمثل عمله] ·

ان الجواب هنا متوقف على الشرط ، والمحمول قائم على الموضوع، وليس هذا افتاء فى شأن سنى على وحده ، بل انه افتاء فى قضية عامة ، وهى تمس كل من مارس الأعمال السابقة ·

ولا يسعنا هنا الا أن ننوه بشجاعة المغيلى وجرأته ·

المسألة الثالثـــة

هذه المسألة تدور فى فلك المسألة السابقة وتجرى فى محيطها ؛ لأنها من قبيلها ، ولو أعمل الأسقيا ذكاءه لاستغنى فى موضوعاتها عن افتـاء المغيلى ٠

فهو يقول فى مسألته هذه : اننى ملكت البلاد بعد سنى على وكان قد جمع أموالا وخداما من وجوه شتى ، وجئت فاستوليت على ذلك كله ، ثم تركت كل مال من ادعى أنه حر مسلم ، ولما تحريت علمت أنهم يشهـدون ويقولون : لا اله الا الله محمد رسول الله ، لكنهم يعتقدون مع ذلك أن هناك ما ينفعهم ويضرهم غير الله جل وعلا :

لهم أصنام يعظمونها ويذبحون لها ولا يقطعون أمرا صغيرا أو كبيرا الا بأمر سدنتها ، وقد زجرتهم عن ذلك كله فأبوا الا السيف ٠

فما الذى أفعل بهم ؟
هذا هو سؤال الأسقيا ملخصا ٠

وقد رد المغيلى عليه بقوله :

الجواب والله الموفق للصواب أن الملك كله لله والحكم لله من قبل ومن بعد ، فاشكر نعمة الله عليك واتقه فيما ولاك وقلدك من أمور ، واعلم أن سنى على حمل حمله على عنقه واكتسب فى حمله حتى انقضى أجله فترك ذلك الحكم بينكـــم ، فحملته أنت ، فاكتسب لنفسك فى حمله ما ترجى لك بركته ، وتحمد لك عاقبته فى الدنيا والآخرة ، ولا تقل فى باطل قدرت اليوم على ازالته : هذا لا يلزمنى ؛ لأنى ما فعلته ، انما فعله غيرى ، فكلمافعله غيرك ثم صار اليك ، ان كان خيرا فأثبته ، وان كان شرا فأزله ولو طـال زمانه ؛ لأن الملك والحكم لله وأنت واجب عليك أن تصلح كل ما وصل اليك، ولأجل هذا كان فعلك فى اطلاق من ادعى أنه حر مسلم صوابا ، ، وكذلك كل مال تعين لمسلم معين ، واجب عليك رده ٠

وأما القوم الذين وصفت أحوالهم فهم مشركون بلا شك لأن التكفير فى ظاهر الحكم يكون بأقل من ذلك كما بيناه فى السؤال الذى قبل هذا ، فلا شك أن الجهاد فيهم أولى وأفضـــل من الكفـــار الذين لا يقـولون : لا اله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن هؤلاء الذين ذكرت لبسوا

الحق بالباطل بحيث يضل بهم كثير من جهلة المسلمين حتى يكفر وهـــو لا يشعر ص ٤٣ ـ ٤٦ ٠

انتهت اجابة المغيلى ، وهى اجابة صائبة من وجهة نظر الدين ومن وجهة نظر الدولة ، لان الحاكم المسلم فى دولة دينها الرسمى هو الاسلام يجب عليه أن يستتيب هؤلاء الذين يعتنقون المظاهر الوثنيـــة ويؤلهـون غير الله سبحانه وتعالى ، والسكوت على ذلك تقصير فى حق الدين وفى حق الدولة ٠

ومن هذا الموقع المزدوج أفتى المغيلى بجهادهم وقتل رجالهـم وسبى نسائهم وذراريهم وضم أموالهم الى بيت المسلمين ٠

المســألة الرابعــة

وهى مكونة من ستة أسئلة ، والسؤال الرابع فيه نوع من استعراض العضلات من جانب الأسقيا ، وليس معنى هذا أن مضمونه كذب فهو معقول وامكان وقوعه قائم ، وما الظن بامام عادل يتسامع الناس به فى الشـمال والجنوب ، وفى المشرق والمغرب ؟

انهم بلا شك سيتدافعون نحوه وسيهرولون اليه طالبين أن يكون لهم شرف الولاء له ، والدخول فى طاعته ، ويتأكد ذلك اذا كان سلاطينهم ظلمة لا يرعون فى الله الا ولا ذمة ٠

وهذا هو السؤال الرابع عطف به على أسئلته السابقة فقال : ـ

وأيضا بعض المسلمين فى شرقنا وغربنا سمعوا بى وطلبوا أن يدخلوا تحت طاعتى ، فهل أجيبهم الى ذلك ؟ أو نقف على حكم بلادنا التى أورثنا الله عن سنى على ؟

ويظهر أن الناس فى السودان قد أنسوا خيرا فى الأسقيا محمد بعد أن أحاط نفسه بطبقة العلماء من قراء وفقهاء وبعد أن نهض بمملكته فخرج بها من طور القبيلة الى طور الدولة ٠

وهذا فضلا عما اشتهر به فى مملكته بل وفى خارج مملكته من تقى

وورع ومن التزام باقامة العدل ودفع الجور ، فلا عجب أن يتهافتوا عليه ، وأن تهفو نفوسهم الى الدخول فى حكمه ٠

***

لكن بماذا رد المغيلى على هذا التطلع الى المجد ؟ وعلى هذا الاحساس المسرف بالذات ؟

أنظر ها هو ذا يقلم أظفار الأسقيا ، وبعبـــارة أدق : ها هو ذا يقلم أظفار الكبر فيه ويرده الى جادة التواضع ، والى عدم الانسياق وراء وهم كاذب أو برق خادع ٠

فقد يكون وفد هذه الامة من الحاقدين على حاكمهم أو من الظلمـــة الذين لا يعجبهم أن يعاقبوا بظلمهم وأن يسوى بينهم وبين غيرهم ٠

ولهذا لجئوا سياسيا الى دولة الاسقيا وحرضوه على غزو بلادهم نكاية فى حكامهم ونسيانا أو تناسيا لوطنيتهم التى كانت كفيـلة بردعهـم وبضبط سلوكهم فلا يخرجون على قواعد اللجوء السياسى ٠

وأبسط هذه القواعد انما هو عدم اشـــتغال اللاجىء الســـياسى بالسياسة ٠

***

قال المغيلى : ـ

الجواب والله الموفق للصواب أن الأرض كلها لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، والتقوى مخالفة الهوى . فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ٠

ثم اعلم أن البلاد ثلاثة : ـ

الأول : بلاد سائبة ليس لهم أمير بل مهملون ٠

فهؤلاء أجبهم الى مبايعتك والدخول تحت طاعتك ؛ لأنه لا يحل لطائفة

من المسلمين أن يكونوا هملا قال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » ٠

وفى صحيح مسلم عن ابن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : - « من خلع يدا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له ، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية » ٠

الثانى : - بلاد لهم أمير يرعاهم فى مصالح دينهم ودنياهم بحسب الامكان فى هذا الزمان ، وهؤلاء لا يحل لأحد منهم أن ينزع يدا من طاعته ، ولا يحل لأحد أن ينازعه فى رعيته « ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »

وفى صحيح مسلم عن أبى سعيد قال ٠ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا بويع الخليفتان فاقتلوا الاخير منهما ، لا خير فيه ٠

الثالث : بلاد لهم أمير من هؤلاء الأمراء الذين وصفت :
يأخذ المكس بالظلم وبالفساد وعدم الاصلاح ، فان استطعت أن تزيل ظلمه عن المسلمين من غير مضرة عليهم حتى تقيم أميرا عادلا فافعل ، وان أدى ذلك الى القتال وقتل كثير من أعوانك ؛ لأن من قتل منهم شر قتيل ، ومن قتل منكم خير شهيد ص ٤٧ - ٥١ ٠

***

والمغيلى بهذا الرد الجامع المانع قد كشف من غرب الاسقيا وحد من طموحه غير المشروع ٠

المسألة الخامسة

هذه المسألة تعالج شئون المال والاقتصاد أصلا ، وشئون السياسة والاجتماع تبعا ، فهى تدور حول ركن هام من أركان الاسلام هو الزكاة ٠ وقد بدأها المغيلى هكذا : -

قولكم : وقد جعل الله هذه البلاد تحت يدى برها وبحرها ولم يعرفوا قبلى الا الظلم والاهمال ، ولم يسمعوا قط من يناديهم لشورسوله ، فأجاب من أجاب بخوف السيف والحمد لله ، وله مزارع كثيرة وبحر واسع كثير خيره فهل لى أن أعمل خراجا على أرضهم أم لا ؟

وأيضا : هل يجوز لى أن أنصب عالما أمينا يجمع زكاة النعم والحرث ويفرقها على مستحقيها من الاصناف الثمانية باجتهاده أم لا ؟

وان جاز لى نصبه ، فهل لى أن أعاقب من أبى أن يؤديها ؟
وان جازت لى عقوبته فما هى ؟
وهل تجوز شهادة السلطان الذى لا يمكس ، ولا حفظ عليه ظلم فى هذا الزمان أم لا تجوز شهادته ·

***

وواضح أن المراد بالسلطان فى كلام الاسقيا انما هو (المختار) بلغة الشام و (العمدة) بلغة مصر ، فقد كان لكل منطقة أو لكل قبيلة بالسودان كبير أو شيخ فى هيئة سلطان ·

وتتردد مؤهلاته لذلك بين أن تكون كثرة المال أو كثرة الرجال أو شيئا من الفضائل الذاتية كسعة الصدر ورجاحة العقل وقوة الاحساس بمتاعب الناس ، ومن هنا سعيه الدائب فى محوها أو على الاقل تخفيفها .

ونمضى الى جواب المغيلى فنجده يقرر أن للاسقيا بصفته اماما عادلا أن ينصب عاملا أو عمالا لجمع الزكاة وصرفها فى مصارفها التى ذكرها الله تعالى ، لكن ليس له أن ينقل زكاة بلد الى غيره الا على وجه النظر بالأصلح فيفرق فى أهل بلدها ما اضطروا اليه ، وينقل لغيرهم ما اضطروا اليه ·

وبعد أن ينصحه بالاستغناء بالحلال عن الحرام ، يمتدحه بأنه فارس ميدانه وأوحد زمانه ، ها هو ذا يقول له : -

واذا كان أمرك الى الآن ما يستقر ، ولا ثبت على العدل ، فاصبر عن ذلك لأنك فى هذا الذى استقبلته وشرعت فيه غريب فى هذا الزمان ص ٥٤ - ٥٥ ·

***

والخلفية التى تقبع وراء هذا الثناء أن المغيلى كان قد نقم على الحكام فى تلمسان حكمهم الظالم لشعوبهم وتقاعسهم عن رعاية شئون رعيتهم واتخاذهم اليهود بطانة لهم يفضلونهم على بنى دينهم ·

وليس هذا فقط ، بل انه كان يرى فى كثير من حكام بلاد الاسلام بعدا عن العدل وقربا من الجور ، ولهذا اعتبر الاسقيا محمدا الأول غريبـــا فى زمانه بعـد له فى حكمه ، وبمحـــاولته - قدر طاقته - تطبيق الشريعـــة الاسلامية فى سائر مملكته ٠

***

ويمضى المغيلى فى تجليه الدينى واصلاحه الدنيوى فيضع الحـــاكم وجها لوجه أمام مسئولياته الحضارية والعمرانية بقوله : -

« واذا كان الامام ينظر للمسلمين بالتقوى لا بالهوى ، واضطر لدرء مفسدة أو جلب مصلحة ، بأمر لا يخالف الشريعة فليفعله ، لأن المطلوب من الامام ونحوه درء المفاسد وجلب المصـــالح بحسب الامكان فى كل زمان ومكان ، فلكل شىء وجه وليس الخبر كالعيان ، ولذلك قال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : تحدث للناس أقضية بعدد ما أحدثوا من فجور ٠

واذا علمت ذلك ينبغى لك أن تجعل للخراج على تلك البلاد ما فيـــه مصلحة المسلمين وعمارة الارض من غير تضييق ٠

وينتقل الى مسألة حيوية وعلى درجة قصوى من الاهمية وهى مسألة المرافق العامة بقوله : -

« ولا يحل لك أن تجعل ذلك (الخراج) على المناضد العـــامة التى فيها الارتفاق العام كالمياه والمراعى والطرقات والمنازل المبـاحة فان الله لم يجعل ذلك لسلطان ولا غيره . وان كانت البلاد قد فتحت عنوة ٠

فاترك ذلك كله ، ومن ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه ، وما عنـد الله خير وأبقى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « المسلمون شركاء فى ثلاثة : فى الماء والكلأ والنار » ٠

***

ولا أريد أن أعلق على هذا الكلام بما يثرثر به من يقيمون من أنفسهم سدنة فى معبد الاشتراكية وهم أبعد الناس عنها علما وعملا واللهم اجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ٠

المسألة السادسة

وهى فى أناس لا يتوارثون على الكتاب والسنة ، وانما يأخذ مال الميت ابن أخته مثلا .

والاسقيا يسأل : هل تؤول هذه الاموال لبيت المال ، أو تترك بأيدى من حازوها ، ويجبرون على التوارث فيها وفى غيرها على شريعة الاسلام ؟

والباحثون يقررون أن البشرية فى فجر حياتها كانت تربط قضايا الارث والاستخلاف بالأم ؛ فالأم هى ربة البيت ، وهى التى يعود اليها جميع افراد الاسرة . وقد كان ذلك أكثر وضوحا لما كانت البشرية تمر بالاطوار التى لم ينتظم فيها الزواج ؛ فقد يكون للام عدد من الازواج فى وقت واحد، وفى أمثال هذه الاحوال فان الام وحدها هى التى تمثل الاصالة فى انحدار جميع أفراد العائلة من نسلها .

وقد مر المجتمع الافريقى قبل الاسلام بمرحلة ارتباط الارث بالام ، وبعد الاسلام ظلت بعض قبائله على عاداتها السابقة فى مسألة الميراث وهو ما أشار اليه الاسقيا محمد فى صدر هذه المسألة ، وقد تطور ذلك الى أن بعض الناس كانوا يقرون الميراث كما جاء به الاسلام ، ولكن اذا كان فى الورثة كبير استولى على جميع التركة وقال : هذا مال اخوانى وأنا اليوم بمنزلة أبيهم فيعطى الزوجة ونحوها نصيبها ويستولى على الباقى حتى اذا مات استولى على تركته الاقوى أيضا ، ثم تطور ، الى أن صاروا لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء .

ولما كانت هذه الانظمة أنظمة جاهلية ، فان الاسقيا يسأل : هل هذه الاموال لبيت المال أم لا ؟

كما يسأل عن أناس مسلمين طردهم العدو من بلادهم فدخلوا بلاد قوم آخرين وسكنوا عندهم ، وبعد ذلك جلا العدو الذى طردهم ، وبقيت بلادهم خالية خاوية ، لم يرجعوا لها ، فأخذ بعض الناس يزرعونها وأهلها يقولون : لا تزرعوا فى أرضنا الا بالكراء .

فقالوا لهم : الارض لله وقد خرجتم منها وتركتموها معطلة ، وكلهم الآن تحت سلطان واحد عادل ، فهل لهم أن يمنعوا أحدا أم لا ؟

هذه الاسئلة جزء من المسألة السادسة وليست كلها ٠

وجوابها : أن القوم الذين من شأنهم أنهم لا يتوارثون على الكتاب والسنة انما يرث منهم الخال وابن الأخت وابن الخال ، ان رأوا أن ذلك حلال وجحدوا شرائع ميراث الاسلام ، فهم كفار ، وان لم يجحدوا الميراث واقروا أنهم عصاة فليؤمروا بالتوبة والرجوع الى فرائض الله فيما يستقبل ، فان أبوا فللسلطان أن يأخذ أموالهم كلها ، وان تابوا فأرى أن يترك لهم منها ما يثبت أنهم اكتسبوه من الحلال ، وأن يقسم معهم ما سواه فيأخذ النصف ويترك النصف ٠

وأما الذين يستولى منهم الكبير على التركة ويقول : هذا مال اخوانى وأنا كأبيهم نحفظ لهم ونربيهم ، فليؤمروا بالتوبة ويأخذ السلطان حقوق ضعفائهم ، فيقوم كل بحقه ، والسلطان ينصفه من غريمه ٠

وأما الذين لا يورثون الزوجة ولا غيرها من النساء ، فهم كالفريق الاول على ذلك التفصيل ٠

وأما الذين طردهم العدو من أرضهم فتركوا مسكناها ، فليس لهم أن يعطلوها ولا أن يأخذوا أجرة ممن يزرع فى مزارعها ويرعى فى مراعيها ، انما لهم أن ينتفعوا بها أو يتركوها لمن ينتفع بها حتى يرجعوا اليها ان شاء الله تعالى ص ٥٧ ـ ٦١ ٠

***

واذا بدا الاسفيا هنا حريصا على تطبيق قواعد الدين ، فان المغيلى قد حدد له هذه القواعد وجعلها كأنها محسوسة تتلقاها الحواس مثلما يتلقاها العقل بل قبل أن يتلقاها العقل ٠

وهو فيما يتعلق بالارض الخالية قد رجع بها الى أصل الخليقة ، فالأرض لمن يزرعها ، لا احتكار ولا اقطاع ٠

وهؤلاء الذين تركوا بلادهم ثم لم يرجعوا اليها بعد أن زالت أسباب تركهم لها لا يزرعون ولا يتركون غيرهم يزرع ، وهذا ـ عمليا ـ تعطيل للارض واضرار بالاقتصاد ٠

أما ـ نظريا ـ ففساد فى الجبلة وأنانية .

المسألة السابعة

وهى كالأولى فى طولها وتنوع موضوعاتها ، فمن سحر وتنجيم وشعوذة الى تطفيف للكيل وغش فى الميزان ، ومن اختلاط الرجال بالنساء الى عرى خالص للبنت حتى تتزوج ولو كانت بنت القاضى أو السلطان .

يقول المغيلى للاسقيا : -

ان كل ما ذكرتموه عن بعض أهل تلك البلاد ضلال عظيم ، فواجب على أمير المسلمين وكل من له قدرة من المؤمنين أن يغير تلك المناكر كلها .

وهو يشير على الامير باللجوء الى وظيفة المحتسب بقوله : -
وأما التطفيف فهو حرام بالكتاب والسنة واجماع علماء الامة ، وواجب على أمير المؤمنين أن يجعل أميرا على الاسواق لحفظ الارزاق ، فيصلح موازين كل بلد على نسبة واحدة بتقويم الميزان والوزن وتسوية الصنوج حتى لو فرقت مائة مثقال بالصنوج كلها لا ينقص ، ولو جمعتها بتلك الصنوج لا تزيد الا مالا بال به من الزيادة والنقص .

وكذلك يجب اصلاح المكايل كلها كبارها وصغارها حتى تكون كلها على نسبة واحدة .

ولابد من عرض الموازين والمكاييل على التغيير فى كل حين ، فمن ظهرت عليه الخيانة فى شىء من الوزن أو الكيل فعاقبوه وأخرجوه من أسواق المسلمين .

ثم يدخل فى كلام فنى لا يفهمه ولا يهضمه فضلا عن أن يقوله ويكتبه الا المتخصصون المتمرسون بالكيل والميزان فى الاسواق الجامعة .

***

وعن مسألة الاختلاط والعرى يقول : -
ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء ، وكشف العورات ، فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد فى منع ذلك كله بما استطاع .

ومن الصواب الواجب أن تنقل كل امرأة عن مواضع التهمـــة ، وأن يجعل الامير أمناء يطوفون بالليل والنهار والطرقات ، فكل من رأوه يتكلم مع أجنبية أو يدخل عندها أو ينظر اليها فليأخذوه وليأتوا به الى المنولى خطة الحسبة ليعنفه ويزجره بما يليق بمثله حسب سوف فعله ٠

وأما ما ذكرتم من عادة أهل جنى فى أن البكر لا تستر عورتها حتى تتزوج ، فذلك منكر من أكبر المناكر وأقبح القبائح لم يسمع قط بمثله فى شىء من بلاد المسلمين ، فكيف يزعمون أنهم مسلمون ؟ !!!

انا لله وانا اليه راجعون ٠

***

بهذا تنتهى هذه المسألة وهى آخر مسألة فى الكتاب ٠

وقد ختمه المغيلى بما بدأه به من وعظ الامير وتذكيره ثم بالصـــلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ـ

فاتق الله تعالى وانظر لنفسك قبل الفوت ، فانه لابد من المـوت قـال تعالى : ـ « ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسـب ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ان الله بالغ أمره قد جعـــل الله لكل شىء قـدرا » ٠

وقال تعالى « كل نفس ذائقة الموت ، وانما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وما الحياة الدنيـــا الا متاع الغرور » ٠

صدق الله العظيم ونبيه الكريم ، ونحن على ذلك من الشاهدين والصلاة والسلام الاتمان الاكملان على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ولا حول ولاقـوة الا بالله العـــلى العظيم ص ٧٠ ٠

***

أما بعد : ـ

فانى أدع المجال لكلام المغيلى كى يعمل عمله ويفرط حمله ، وينقل شحنته الثمينة من الفكر والحماس والاخلاص والابداع الفنى الى أذهان ومشاعر مستقبليه ٠

وكل ما أرجوه أن يقرأه بعض ذوى النفوذ فى بلاد العرب والاســلام وأن يعوه ويطبقوه ٠